حرب داحس والغبراء

نشبتْ حرب داحس والغبراء بين قبيلتين عربيتين هما قبيلة عبس وقبيلة ذبيان. وهما أبناء بغيض. وبحكم القرابة فقد كانوا يعيشون متجاورين في منطقة نجد بالجزيرة العربية.

اندلعت هذه الحرب في عصر الجاهلية بسبب نزاع قام بينهما حول أي فرسي القبيلتين كان أسرع. وكانت داحس جواداً لقيس بن زهير ملك قبيلة عبس، كما كانت الغبراء فرس حذيفة بن بدر الفزاري الذبياني. [ويذكر رواة الأخبار العرب أن هذه الحرب استمرت بين القبيلتين لفترة بلغت أربعين سنة قضوها كلها في محاربة بعضهما بعضاً إلى أن تدخل الوسطاء وعقدوا صلحاً بين القبيلتين، ودفعوا ديات القتلى، وانتهت بذلك المجازر التي أصابتهما وذلك قبيل ظهور الإسلام، ودخول القبيلتين في دعوته المباركة].

وكان قيس قد اشترى جواده داحس من مكة المكرمة، وسمي الجواد بهذا الاسم لأن والد الجواد كان قد نزا على أم داحس دون إذن أو موافقة صاحب الجواد الفحل. ولكي يرضي صاحب الفرس صاحب الفحل دحس فرج فرسه لمنعها من الحمل. ولكن شاء الله أن تلد مهراً أعجب كل من رآه رغم ما حدث لأمه من دحس، ولذلك سمي هذا المهر داحساً. وكان يعجب النظار مرآه. وكان قيس معجباً بهذا الفرس أيما إعجاب، وكان يحب الفخر، وكان مما يفخر به هذا الجواد الذكي النشط.

وتمضي القصة فتقول: إنه بينما كان قيس غائباً يؤدي العمرة في الجاهلية التقى أحد أبناء عبس واسمه ورد بحَمَل بن بدْر من بني ذبيان وهو أخ لملكها حذيفة بن بدر. وكعادة العرب في البادية تطرق بهم الحديث عما لديهم مما يفتخرون به على بعضهم بعضاً. ولما لم يكن لورد ما يفتخر به على حمل بن بدر عطف على ذكر داحس فرس قيس، وأخذ يطنب في صفاته، ويذكر محاسنه مما أثار حفيظة حمل، فأخذ هو الآخر يفتخر بفرس كانت لأخيه حذيفة أطلق عليها اسم الغبراء. وتلاحى الشابان في المفاخرة.. كل يطري فرس صاحبه، وانتهى بهما التلاحي إلى أن فرس كل

منهما أسرع من فرس الآخر. ثم ازداد التفاخر فقالا: إن هذا الفخر لن ينتهي إلا إذا جرى الفرسان أمام الجميع من القبيلتين ليشاهد الناس أيهما أسرع، ومع نشاط التفاخر اتفقا على أن يكون هناك رهان.

عاد قيس من أداء العمرة ووجد الحيين من أبناء بغيض في حالة منافسة شديدة بينهما على أي الفرسين أسرع. ووجد حذيفة بن بدر هو الآخر متحمساً لفرسه الغبراء على أنها أسرع من داحس. واجتمع كبار رجال القبيلتين لتنظيم السباق، والإعداد له، وتوضيح الشروط بما في ذلك الرهان ومقداره، كما تقرر أن تسليم النياق وعددها عشرون ناقة لرجل غير متحيز لأي جانب، ووقع الاختيار على رجل من بني ثعلبة بن سعد عرف بالحياد والأمانة. وحددت مسافة السباق بمائة غلوة، والغلوة هي المسافة التي يقطعها السهم إذا أطلق من القوس. ولكي يستعد كل من الجانبين بفرسه لهذا السباق أعطي أربعين يوماً يقوم خلالها بترويض فرسه وإعداده إعداداً حسناً للسباق. واختير المكان الذي يجري فيه الفرسان فكان مكان النهاية للسباق هو موقع ذات الإصاد وهو كما قال ياقوت ردهة بين أجبل في ديار بني عبس. والردهة لغة هي نقيرة في حجر يجتمع فيها الماء.

وقيست مسافة السباق ابتداء من ذات الإصاد حتى نهاية المائة غلوة. وكان على المتسابقين أن يبدأ سباقهما من حد المائة غلوة وصولاً إلى موقع الماء في ذات الإصاد.

بدا قيس بن زهير وخلفه العبسيون مطمئنين من الفوز في هذا السباق. بيد أن حذيفة وأخاه حمل أرادا أن يضمنا الفوز حتى يأخذا النياق الموضوعة للرهان إضافة إلى الفخر على أبناء عمومتهما من العبسيين. لذلك فقد قررا أن ينصبا كميناً لداحس وراكبه بالقرب من نهاية السباق. واتفق حذيفة مع رجل من بني أسد وهي قبيلة كانت تجاورهم وحليفة لهم على أن يقف حائلاً بين داحس وذات الإصاد إذا جاء سابقاً للغبراء. وكان عليه أن يرد وجه داحس حتى يمنعه من الوصول إلى النهاية. وكان مع الأسدي رجال ليقوموا معه بمهمة المنع والتأخير حتى تأتي الغبراء سابقة.

في اليوم المحدد خرجت عبس بقضها وقضيضها، كما خرجت ذبيان بشيبها وشبابها، واتجهوا نحو ذات الإصاد لرؤية ما ينتهي عليه سباق الفرسين داحس والغبراء. وكان شيوخ القبيلتين في مقدمة الناس، والكل يتحدث، ويقول ما يتوقعه، ولمن سيكون الفوز، ومن الذي سيخسر السباق والرهان.

وركب الفارسان ـ الفارس العبسي والفارس الذبياني جواديهما، ووقفا عند بداية المضمار ينتظران إشارة بدء التسابق لينطلقا بالجوادين نحو النهاية. ووقف رجال القبيلتين على جانب المضمار وقد أعطوا ظهورهم للشمس لمراقبة الجوادين المتسابقين بعيون تود لو كان بإمكانها أن تستشف الغيب لتعرف أي الجوادين سيكون هو السابق. وأعطيت الإشارة، وانطلق الخيالة، وأسرعت الغبراء الخطا في بداية الأمر، وسبقت داحساً، وشعر حذيفة براحة واطمئنان، وقال فرحاً لقيس: «سبقتك يا قيس!» ولكن قيساً كظم غيظه، وضبط أعصابه، وقال لحذيفة: «جري المذكيات غلاب»، وكان قيس بقوله هذا يعني أن الجواد الذي لم يتجاوز عمره العام أو العامين لا يصل إلى أقصى سرعة في عدوه في بداية السباق. وكان قيس يأمل أن يزداد داحس في سرعته كلما ازدادت المسافة. وبعد فترة من الوقت ازداد نشاط داحس، وأخذت المسافة بينه وبين الغبراء تضيق شيئاً فشيئاً، وكان الجوادان يسرعان نحو النهاية وقد اقتربا من الموقع الذي كان يكمن فيه الأسدي ورفاقه لصد داحس إن جاء سابقاً. وقبيل الوصول إلى الكمين برز داحس، وسبق الغبراء. وكان الجمهور قد لاحظ أن نشاط الغبراء أخذ يقل، وأن داحساً لا ريب سابقها، وجاز الجوادان أكمة غطت منظرهما عن المشاهدين،

وكانت أكمة مليئة بالأشجار لم تدع للمشاهدين فرصة لمعرفة ما هناك. كما أن وراء الأكمة والأشجار كان هناك الكمين الذي نصبه حذيفة. وخرج الأسدي وأعوانه من وراء الأكمة وهم يشاهدون داحساً في المقدمة. نعم لقد سبق داحس الغبراء، فما كان منهم إلا أن وقفوا أمامه، وصدوه عن المضي قدماً، وردوه بما لديهم من عصي وثياب. فانتابت داحس نوبة من الخوف، وتوقف عن الجري، واحتار راكبه أين يمضي، ومرت الغبراء بهما تسابق الريح نحو ذات الإصاد التي كانت على مقربة من موقع الأحداث، وهناك شاهد الناس الغبراء وهي تصل سابقة لداحس. فرح الذبيانيون، وسخروا من العبسيين ومن داحس. وشعرت عبس بأن ذبيان تغلبت عليهم في السباق.

ما إن رأى الفارس العبسي الذي كان يركب داحساً ما حدث بعد بلوغه ذات الإصاد، ومعرفته بما فعل الذبيانيون، حتى سار بجواده نحو قيس بن زهير ومن معه من العبسيين، وأخبرهم بما حدث له ولداحس من صد ورد، وكيف أن جماعة من الناس وقفت حائلاً بينه وبين الوصول إلى الماء بعد أن سبق الغبراء. وشرح الموقف. وهنا استشاط قيس وكبار رجال عبس غضباً من حذيفة والمؤامرة البشعة التي دبرها. وشعروا بمدى

استخفاف ذبيان بهم وبعقولهم، فرجعوا إلى ديارهم وهم في حالة من القنوط لما لحق بهم.

أما ذبيان فقد ملأوا البر ضجيجاً وفرحاً بما حققوه من فوز، ولم يلقوا بالاً للمكيدة التي دبروها، كما أن ضميرهم لم يؤنبهم على الكمين الذي نصبوه لداحس. وكان أكثر ما يعجبهم أنهم أغاظوا بني عمهم أبناء عبس.

يممت كل قبيلة نحو ديارها وهي تحمل ما تحمل من مشاعر. وما أن وصلت ذبيان منازلها تذكرت الرهان وأنها لم تتسلم العشرين ناقة التي وضعت لدى الثعلبي والتي لا بد وأن يكون قيس قد استردها بعد أن اكتشف مؤامرة الكمين. فقرر حذيفة ورفقاؤه أن يزيدوا من غيظ قيس، وأن يزدادوا سخرية منه، فرأى أن يرسل إليه ابنه ندبة ليطلب منه تسليم الرهان البالغ عشرين ناقة. وكان ندبة غلاماً قد سكر من هذه المفاجآت، وانغمس فيها، وشعر بزهو لأنه سيرسل ليغيظ قيس بن زهير ويطلب منه تسليم النياق.

وصل ندبة إلى منازل عبس، وسأل عن قيس فلم يجده في منزله، فسأل الزوجة عن مكانه، فسألته ماذا يريد من قيس، فقال: إنه يريد النياق. فردت عليه قائلة: «ما أحب أنك صادفت قيساً» وكانت الزوجة تعلم

مشاعر زوجها المتأججة غضباً على بني ذبيان. ورجع ندبة إلى أبيه وأنبأه بما قالت زوجة قيس، فرأى حذيفة أن تزداد سخريته من قيس، فأرسل ابنه مرة ثانية ليطالب قيساً بالرهان. فعاد ندبة إلى قيس، ووجده في الدار، فطالبه بالرهان قائلاً له: «أبي يقول أعطني سبقي».

هنا لم يستطع قيس أن يتحمل هذا الازدراء، فما كان منه إلا أن تناول رمحه، ودق به صلب الغلام وقتله في ساحة الحي. فما كان من فرس الغلام إلا أن عاد مسرعاً عائداً إلى أهله دون أن يكون عليه فارسه الذي كان يتخبط في دمائه بأرض بني عبس.

لما رأى قيس ما فعله بندبة، علم أن بني ذبيان سيأتون إليه فرساناً وركباناً للأخذ بثأر الغلام، فنادى في عبس قائلاً: «يا لعبس! الرحيل». فأسرع العبسيون في الاستعداد للرحيل، وحمّلوا إبلهم كل ما لديهم من متاع، وتركوا الديار، لينزلوا أرضاً بعيدة من بني ذبيان.

رأى حذيفة فرس ابنه وقد عاد بدون فارسه، فتملكه الغضب، وعلم أن قيساً قد قتله، فنادى رجال القبيلة وطلب منهم المسير معه إلى ديار عبس ليأخذ بثأر ابنه، وشعر كل من كان في ديار ذبيان بأن الحرب قد أوقدت أوارها بين أبناء العمومة.

اعتاد العرب في مثل هذه الأحوال أن يتخذوا إحدى خطتين: إما الأخذ بثأر القتيل وإما قبول الدية من القاتل أو أهله. ورغبة من حذيفة في ألا يثير حرباً مع أبناء عمومته العبسيين رضي بأخذ الدية من عبس، وكانت عبارة عن مائة ناقة عشراء، ورضي قيس بأن يدفع الديّة جزاء ما اقترفت يده.

تسلمت قبيلة ذبيان الدية، غير أن ملكها حذيفة لم يكن مكتفياً بذلك، بل كان يريد أن يسفك دم أحد كبار العبسيين، وكان مالك ابن زهير متزوجاً بامرأة من فزارة، وهو أخ لقيس بن زهير ملك عبس، وبحكم هذه المصاهرة فقد كان يسكن في ديار قبيلة فزارة بن ذبيان. فلما قتل أخوه قيس ندبة أرسل إليه يحذره من حذيفة ابن بدر وإخوانه خوفاً عليه من أن يغتال. ولكن مالك بن زهير لم يعبأ بذلك التحذير. ورغم صلات النسب بينه وبين آل ذبيان إلا أن تلك المصاهرة لم تمنعهم من قتله. وبالفعل قاموا بقتله انتقاماً لمقتل ندبة.

وكما تروي الأخبار فقد كان مالك له صداقة بعنترة بن شداد. فلما قتل حزن عليه عنترة ورثاه بقصيدة جاء فيها:

فللّه عينا من رأى مثل مالكٍ
عقيرة قوم أن جرى فرسان

فليتهما لم يجريا نصف غلوةٍ

وليتهما لم يرسلا لرهان

وليتهما ماتا جميعاً ببلدة

وأخطاهما قيس فلا يريان

منذ ذلك الوقت ازداد الموقف بين الحيين سوءاً وأصبح كل منهما يغزو الآخر كلما حانت الفرصة، أو كانت هناك غرة منه.

وكان أول قتال كبير بين القبيلتين هو يوم المريقب. والمريقب موضع في أراض بين عبس وفزارة. وفي هذه المعركة خسر الفزاريون أكثر مما قتل من العبسيين، ودارت الدائرة على أبناء بدر الذين قتل منهم عون بن بدر. واستمات عنترة في هذا اليوم، وكان فارس حلبتها، وقتل عدداً من أبطال ذبيان منهم ضمضم المري، والحارث بن بدر. وكان لضمضم ابنان أشار إليهما عنترة في معلقته فقال:

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر

للحرب دائرة على ابني ضمضم

الشاتميْ عرضي ولم أشتمهما

والناذريْن إذا لم القهما دَمي

إن يفعلا فلقد تركت أباهما

جزر السباع وكل نسر قشعم

ويتضح من قول عنترة أنه كان هدفاً يسعى ابنا ضمضم وهما الحصين وأخوه لقتله، وكان يوم المريقب من أشأم الأيام على الذبيانيين.

وحاول الفريقان أن يتجنبا قتل بعضهما بعضاً وذلك بعقد هدنة أو صلح، ولكن سرعان ما يجد أحدهما غفلة في الآخر فيرميه بسهم أو رمح فيقتله وتتأجج النيران مرة أخرى.

وكان يوم الهباءة من الأيام المشؤومة على الفريقين، وقد اندلعت الحرب في هذا اليوم بسبب ما كان يحمله الجانب العبسي من أضغان على بني بدر. وقد وجد جندب غفلة في الفزاري مالك بن بدر حين خرج إلى البادية يطلب إبلاً له ضاعت، فرآه في البادية فرماه بنبل أصابه في مقتل واندلعت الحرب مرة ثانية، وأصابت العبسيين الهزيمة.

حاول قيس أن يبرز صلحاً بينه وبين آل بدر، واقترح أن يعطي الذبيانيين بعض الرهائن من أطفال العبسيين. ورغم معارضة بعض العبسيين لهذا القرار إلا أنهم رأوا أن يطبقوه. وبالفعل سلم العبسيون بعض

أطفالهم ولكن على أن يودعوا عند شخص مؤتمن لن يسلمهم لآل بدر. وكان ذلك الشخص يدعى سبيع ابن عمرو وهو من بني ثعلبة بن زيد ابن ذبيان. وظل الأطفال مع سبيع حتى قربت منيته فسلمهم لابنه، وقال له: إياك أن تخفر ذمتنا وتسلمهم لخالك حذيفة بن بدر مهما بكى لك وتوسل. ومات سبيع فقدم حذيفة إلى ابنه وطلب منه أن يسلمه أطفال عبس بوصفه أكبر رجل في القبيلة. ولم ير ابن سبيع ما يمنع أن يسلم غلمان العبسيين لخاله ليكونوا في حوزته وهو كبير الأسرة.

استغل حذيفة خؤولته لابن سبيع وتسلم الرهائن، وقضى عليهم ثلة ثلة رمياً بالنبال حتى قتلهم جميعاً، وكان ممّن قتل عتبة بن شهاب بن قيس بن زهير، ولم يعارضه أحد في عمله ذاك. وعلمت عبس بما لقي أطفالها على يد حذيفة، فبلغ بهم الحنق مبلغاً عظيماً.

ولم تمض أيام حتى لقي قيس بن زهير العبسي ومعه جماعة من فرسان عبس أحد أبناء حذيفة فقتلوه. ولما علم حذيفة بالخبر جمع رجال قبيلته ومضى يبحث عن عبس حتى وجدهم في ماء يقال له عُراعر، فقاتلهم.

ولما لم تضع الحرب أوزارها، ظل كل من الطرفين ينتظر غفلة الآخر ليوقع به، وقرر قيس أن

يرحل من جوار بني بدر، فأمر بترحيل الظعائن على أن يحرسها الرجال، كما أمر بترحيل المال وهو الإبل وعليها حراسة من الرجال أيضاً على أمل أن يتبع الفزاريون الأموال، فتنجو النسوة. وكان ما رأى قيس لأن الفزاريين آثروا اتباع الأموال وهي الإبل بدلاً من الفرسان والظعائن. فلحقوا بها، وأخذ كل فزاري نصيبه منها وساقها أمامه وهو خائف عليها. ولم يبتعدوا كثيراً بها حتى تفرقوا كل يريد أن يسلك طريقاً غير الذي سلكه رفقاؤه حتى يتجنب طمع الطامعين منهم. وانتهز العبسيون فرصة تفرقهم في البوادي وانفراد كل منهم بما لقي، وأخذوا يهاجمونهم وهم متفرقون حتى قتلوا كثيراً منهم، واستردوا أموالهم، وانتهت المعركة بانتصار العبسيين إذ خسر الفزاريون الذبيانيون كثيراً من رجالهم، كما وقع حذيفة أسيراً في يد العبسيين.

بعد هزيمة ذبيان، هرب فرسانها ومن بينهم حذيفة يريدون النجاة، وعرج حذيفة وأخوه حمل ومعهما قلة من الرجال إلى ماء يعرف بجفر الهباءة. وكان اليوم قائظاً شديد الحر. فأراد الذبيانيون أن يتبردوا بماء الهباءة، فرموا بأنفسهم في الماء، وتركوا خيلهم على اليابسة تتمعك بترابها بعد أن أنزلوا منها سروجها، وطرحوا أسلحتهم بالقرب منها.

بينما هم في الماء يستحمون رأوا ظلال رجال على سروج خيلهم في شاطئ اليم وهم ينظرون إليهم. وتبينهم حمل بن بدر فعرف فيهم قيس بن زهير، فلفت نظر أخيه حذيفة لذلك، وقال له: إن أبغض الأناس إليه يقف على الأرض وهو ينظر إليهم. وكان من بين رفقة قيس رجل عبسي يدعى جنيدب، أخذ يطرد الخيل بعيداً عن الساحة، وحال رفقاؤه بين أبناء بدر والسلاح. وحاول حذيفة أن يسترضي قيساً بمعسول الكلام، ولكن هذا رفض وخرج حذيفة من الماء إلى ناحية قيس وهو يناشده الصفح عما بدر منهم، وحاول أخوه حمل أن يثنيه عن ذلك خوفاً من مأثور الكلام. وفي أثناء مناشدة حذيفة لقيس بالإبقاء عليهم وقف قرواش بن هني وهو أحد الصغار الذي سبق لحذيفة أن رباه مع لقطاء من آل غطفان من عبسيين وذبيانيين. وكان حذيفة يظن أن ما سبق أن أداه من خير سيغفر له الآن. ولكن العصبية القبلية الضيقة أعمت قرواشاً، فما كان منه إلا أن ضرب حذيفة بمعبلة (وهي نصل طويل عريض) فقصم بها صلبه. وانقض عليه بعد ذلك كل من الحارث ابن زهير العبسي وغيره فأجهزوا عليه، وقتلوه. ثم قتل الحارث بن زهير حمل بن بدر، ولم يستبقوا ممن كان في الماء غير حصن بن حذيفة لأنه كان صغير السن.

تمضي الروايات فتقول: إن قيساً ندم على ما فعله

بحذيفة وأخيه حمل، وأخذ يرثي كلا الرجلين، فكان مما قاله:

أتعلم أن خير الناس ميتٌ
على جفر الهباءة لا يريم
ولولا ظلمة ما زلت أبكي
عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر
بغى والبغي مرتعه وخيم

وهكذا فقد أخذ قيس يلوم نفسه. وكان عنترة من أولئك الذين كانوا يرون أنه لا داعي للوم بعضهم بعضاً، ولعل بيته الذي يقول فيه:

وإذا دُعيتُ إلى الكريهة لم أقل
بعد الكريهة ليتني لم أفعل

يشير إلى هذه الحادثة.

أما قيس فبالإضافة إلى ما قاله أولاً، نظم أبياتاً أخرى في مقتل أبناء بدر منها:

شفيت النفس من حمل بن بدر
وسيفي من حذيفة قد شفاني

شفيت بقتلهم لغليل نفسي
ولكني قطعتُ بهم بناني

كما قال أيضاً عن سباق داحس والغبراء:

فلا كانت الغبرا ولا كان داحس
ولا كان ذاك اليوم يوم دهاني

يقول رواة الأخبار العربية: إن بني عبس بعد يوم الهباءة ـ أخذ يلوم بعضهم بعضاً على قتلهم أبناء عمومتهم من آل بدر، وأن ذبيان اجتمعت مع كبار القبيلة للنظر فيما عسى أن تفعل بعبس، وكيفية الأخذ بالثأر منها. وكان من بين من ذهبوا إليه كبيرهم سنان ابن أبي حارثة المرّي الذبياني، وكانت كل من عبس وذبيان قد شعرت بوطأة الحرب، وما أكلته من رجال، وأنهما أصبحتا ضعيفتين إذا ما قورنتا بغيرهم من القبائل المجاورة، ولذلك فقد أصبحت القبيلتان مستضعفتين بين جيرانهما. وأخذ العاقلون منهم يبحثون عن حل أجدى وأنفع من القتال، ولكن يبدو أن كفة الذين كانوا يريدون الحرب في ذبيان هي المتغلبة.

نازلت القبيلتان بعضهما بعضاً في موقعة ذات الجراجر، واقتتلوا في ذلك اليوم قتالاً شديداً. كما

حملوا على بعضهم بعضاً في اليوم التالي. ويقول الرواة: إن شجاعة عنترة برزت في ذلك اليوم وأثخن القتل في أعدائه. ولما رأى الجانبان كثرة القتلى في الجانبين أخذوا يفكرون في الصلح.

كانت حرب داحس والغبراء درساً لقبائل نجد بأن العصبية القبلية يمكن أن تفني القبيلة بأسرها، كما كانت درساً بأن المال (وهو الإبل في الصحراء العربية)، ليست ما يستحق الاقتتال عليها، بل يجب أن تكون هناك أسباب إنسانية أقوى من ذلك.

تاقت نفوس الأحياء من عبس وذبيان إلى الخلود إلى السلم والأمان، وأخذوا يبحثون عن حياة الدعة والاطمئنان، وطفقوا ينظرون إلى ما سيوصلهم إلى تلك الحياة التي كانوا عليها من قبل. وكان العبسيون قد حاولوا الرحيل عن كل أرض تنزلهم بالقرب من أحياء بني ذبيان، وأخذوا يبحثون عن أرض لهم، ولكنهم كانوا يقعون في الطامعين من عرب الجزيرة العربية بسبب قلة عددهم، فكثُر أعداؤهم والطامعون فيهم، ومع كل هذا فقد كان الذبيانيون يقْفون آثارهم ويسعون للانتقام منهم.

وكان يوم ذات الجراجر من الأيام المشهورة في حرب داحس والغبراء، إذ استمر القتال لليوم الثاني مع

افتراق في المساء. وكان عنترة بن شداد ممن حضروا المعركة، وأبلى فيها بلاء حسناً، ولم ينج من سيفه ورمحه إلا قلة من بني ذبيان الذين كانت وطأة الحرب عليهم أكبر.

مما لا شك فيه أن قتلى يوم ذات الجراجر أثر على الفريقين، وربما شجعهم على البحث عن سبيل للصلح واللجوء إلى السلم أو البحث عن مسكن بعيد عن مسكن الآخر. وبالفعل نشطت عبس ولجأت إلى منازل بالقرب من بني شيبان الذين ما لبثوا أن طمعوا في أموالهم. فما كان منهم إلا أن رحلوا إلى موضع يقال له الفروق بالقرب من هجر. فلما وصلوا هناك مكثوا بعض الوقت، ولكن ما لبث أن طمع فيهم ملك هجر، وعلم قيس بالمكيدة، فأمر قبيلته بالرحيل ليلاً وقد ترك النيران موقدة، والخيام مضروبة، وارتحل عن الموقع بعد أن نظم ارتحال قومه، وقسم المسؤوليات على رجاله، وكان من واجب عنترة أن يحمي الحريم. وكانت هذه الأحداث قد عرفت بين عرب الجزيرة بيوم الفروق. وكان عنترة مسؤولاً عن حماية النساء وقد ذكر ذلك في شعره قائلاً:

ونحن منعنا بالفروق نساءنا

نطوّف عنها مبسلات غواشيا

ونحفظ عورات النساء ونتقي
عليهن أن يلقين يوماً مخازيا

وما زالت عبس في انتقال دائم حتى قررت اللجوء إلى بلاد الشام ابتعاداً عن بني ذبيان. وفي طريقها حالفت بني عامر، فلحقت بها ذبيان وحاربت القبيلتين، وهزمتهما، واضطرت عبس إلى الانتقال إلى منازل أخرى.

وفي آخر الأمر نصحهم قيس بن زهير بالتوصل إلى صلح مع أبناء عمومتهم بني ذبيان، والرجوع إلى منازلهم، أما هو فقد رأى في نفسه سبباً مباشراً للحرب لقتله ندبة بن حذيفة بن بدر. ولما قيل له أن يمضي معهم لبني بدر قال: «لا والله، لا نظرتْ في وجهي ذبيانية قتلت أباها أو أخاها أو زوجها أو ولدها». ثم مضى لسبيله، ويقال إنه اتجه نحو عُمان وقد تقدمت به السن ولم يعرف عنه شيئاً بعد ذلك.

أما بقية عبس فقد ذهبوا إلى الحارث بن عوف المرّي الذبياني الغطفاني ليلاً، وهناك وجدوا معه حصن بن حذيفة بن بدر سيد ذبيان. واجتمع القوم، وحيّا كل منهم الآخر، وتراضوا بينهم، وتدخل كل من هرم بن سنان الذبياني والحارث بن مرة، وأظهرا

رغبتهما في تحمل الديات التي بلغت ثلاثة آلاف بعير تحملاها عن القبيلتين بالطريقة العربية لدفع الديات.

ذكر زهير بن أبي سُلمى المزني الشاعر الجاهلي شيئاً عن كرم هذين الرجلين اللذين هما من ذبيان. وزهير غطفاني مثلهما، ومن هنا ربما كان اهتمامه بالحرب لأن كلاً من عبس وذبيان يرجعان إلى غطفان. وعن نسب زهير فإنه جاء في أيام العرب ص**٢٥٣**، أنه قام رجل من بني مازن بن فزارة مما يوحي بأن مازن هي من فزارة مما يجعل زهيراً طرفاً في النزاع القبلي، إلا أنه كاره له.

كرّس زهير في معلقته بعض الوقت ليتحدث فيه عن الحرب ومضارها، وما تخلفه من تدمير شامل للحياة، وأنه بدلاً من أن يعمل الناس لما ييسر الحياة بإنتاج الغلال والطعام والحصول على الدراهم، كانت الحرب تنتج لهم الشؤم والبؤس. وكان خليقاً بالناس أن يقتفوا أثر سكان العراق في الانتباه إلى ما يفيد الناس من حرث وزرع.